شهادات في تجربة الراحل

بعد رحلة طويلة من الكتابة و الشقاء و الرحيل غيب الموت فجر أمس السبت في دمشق الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف، المولود لأب من قرية قصيباء ،من أعمال القصيم في وسط نجد في المملكة العربية السعودية، وبعد هجرته ضمن إحدى القوافل البدوية الى بلاد الشام، ورحيل متكرر بين نجد والشام، استقر (الأب) ابراهيم المنيف في الأردن، فولد له فيها آخر أبنائه الذكور (عبد الرحمن) في العام 1933، وبعد ثلاث سنوات توفي الأب..

درس عبد الرحمن منيف في كتّاب في جبل عمان، ثم التحق بالمدرسة العبدلية الحكومية، وفي عام 1952، أنهى منيف دراسته الثانوية، ليلتحق بكلية الحقوق في جامعة بغداد، ثم يواصل دراسته في القاهرة، وبعدها يحصل على الدكتوراه في اقتصاديات النفط من جامعة بلغراد في يوغسلافيا. عمل عبد الرحمن منيف في عدد من شركات وزارة النفط السورية، ثم في صحافة بيروت عام 1975، قبل ان يعود الى بغداد ليصدر مجلة "النفط والتنمية"، اضافة الى عدة كتب اقتصادية منها: (البترول العربي: مشاركة أم تأميم)، و(الديمقراطية أولاً). غادر العراق الى باريس عام 1981 وتفرغ للكتابة، وعاد الى دمشق 1986 وبقي فيها حتى وفاته.

صدر للراحل الكثير العديد من الروايات منها: (الأشجار واغتيال مرزوق) 1973، (قصة حب مجوسية) 1974، (شرق المتوسط) 1975، (حين تركنا الجسر) 1979، (النهايات)، و(سباق المسافات الطويلة) 1979، (عالم بلا خرائط) كتبت بالاشتراك مع جبرا ابراهيم جبرا، 1982، خماسية (مدن الملح) و تضم: (التيه) 1984، (الاخدود) 1985، (تقاسيم الليل والنهار) 1989، (المنبت) 1989، (بادية الظلمات) 1989، و(الآن هنا أو شرق المتوسط من جديد) 1991، (لوعة الغياب) 1989، و ثلاثية (أرض السواد) 1999. كما صدر لمنيف مؤلفات في فن الرواية. وصدر عنه الكثير من المؤلفات أهمها: (ترحال الطائر النبيل) للباحث السعودي محمد القشعمي الذي يحوي فصلاً كاملاً بعنوان: (منيف في آثار الدارسين) يرصد أهم الأبحاث والرسائل الجامعية التي أعدت حوله...

حاز الروائي العربي الكبير على جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية للرواية عام 1989، وعلى جائزة القاهرة للإبداع الروائي التي منحت للمرة الأولى عام 1998.

وتقدم هنا شهادات عدد من الكتاب والنقاد العرب حول الروائي العربي الراحل.

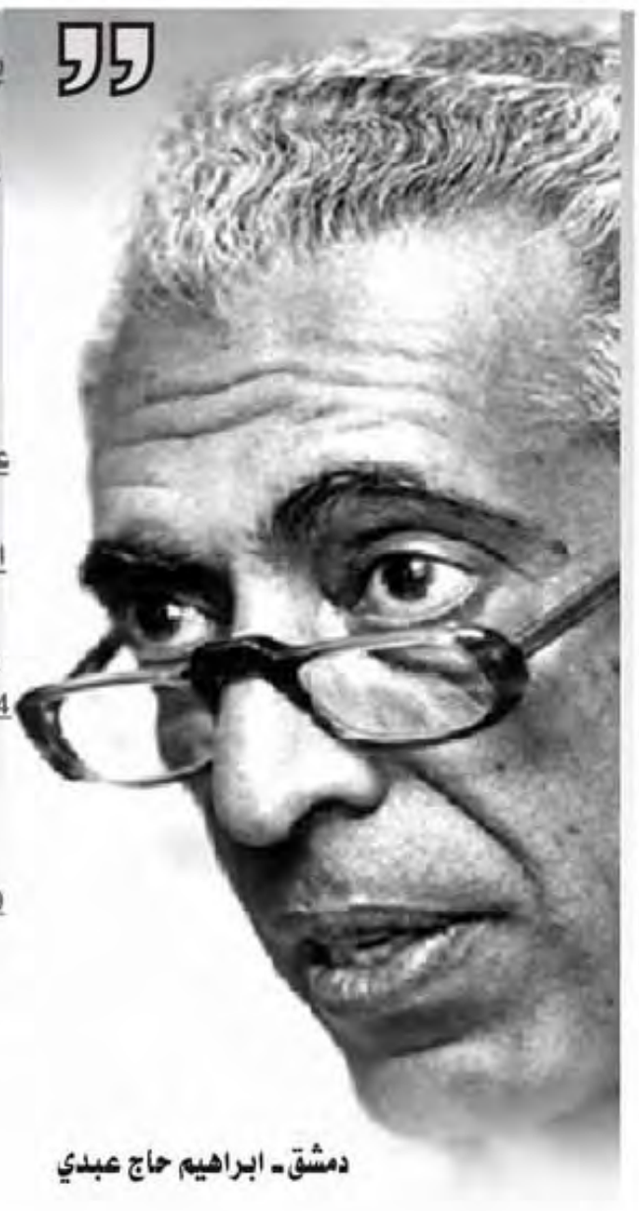

دمشق - ابراهيم حاج عبدي

عبد الله الغذامي.
اول صوت سعودي

يبدو في الآونة الأخيرة صرنا نفقد أجزاء من ذاكرتنا الجمعية، فإدوارد سعيد إلى إحسان عباس وفدوى طوقان ومحمد شكري والآن عبدالرحمن منيف، وكل هذه الأسماء هي أسماء سجلت العقود الماضية الأخيرة من حياتنا كل بطريقته، وحملت صورة من صور الضمير الكلي للأمة ثقافة ووجداناً.

وفي ما يخص عبدالرحمن منيف فهو الروائي الذي حاول أن يقدم الجزيرة العربية بانسانها وظروفها وكان هو أول صوت سعودي يظهر عربياً عبر الرواية تحديداً وقد جعل من نصه الروائي شهادات عن مرحلة من التغير الشديد سياسياً واجتماعياً.

ولم يجد حرجاً من المزج بين السياسي والفني وربما آثر السياسة في كثير من الأحوال مما جعل له خصوماً عديدين ولكنه مع هذا فقد ظل ضميراً جمعياً وأديباً وفير العطاء وتحمل كثيراً من العناء لكي يصمد على رأيه واتجاهه ودفع ثمن ذلك مادياً ولكنه كسب تأييداً معنوياً عريضاً عبرت عنه مبيعات كتبه وانتشارها بين القراء.

وسيظل عبدالرحمن منيف علامة عميقة وقامة عالية في الذاكرة الثقافية وسيترك فراغاً كبيراً في مجال الرواية السياسية ذات التوجه الملتزم.

وسيظل إحدى علامات مرحلة الستينات بما تحمله تلك المرحلة من قيم وطنية وسياسية أصابها كثير من التكسر في مرحلة ما بعد ذلك ولكنها ستظل واحدة من أسس التكوين الثقافي للإنسان العربي ومرحلة الحداثة.

والوقوف على هذه التجربة سيكشف مقدار ما تركه منيف فينا ولم يكن رحيله ليأخذ هذا وإنما رحيل كاتب سيبقى بيننا بما ترك.

كريم مروة
احساس بالوحشة والاغتراب

رحيل عبد الرحمن منيف الفاجئ لم يكن فقط نتيجة صراع مرير مع المرض. بل هو كان شكلاً فريداً من الاحتجاج الدوي ضد واقع عربي وعالمي لا يجد الإنسان عموماً والمثقف خصوصاً مكاناً لائقاً فيه. لقد كانت سيرة عبد الرحمن المنيف في مراحلها كلها سيرة هذا الصراع الحقيقي بسلاح النقد والكتابة المضيئة من موقع الإلتزام بقيم الحرية والعدالة والأخلاق والتقدم ضد هذا الواقع المتمثل في بلداننا بالاستبداد والتخلف والتمثل على الصعيد الكوني بالقهر القومي والاجتماعي وبالتوحش النادر المثال.

قبل عبد الرحمن منيف بفترة قصيرة غادرنا مثقف كبير هو إدوار سعيد ومغادرة الكبار من مثقفينا مواقعهم الرائدة بالموت الطبيعي أو بالمرض أو برصاص الظلاميين إنما إحساساً بالوحشة والاغتراب. إذ هي تأتي في زمن تنهار فيه قيم إنسانية كبرى ومشاريع كبرى لتغيير العالم. لكن تعليقنا بالحياة وأملنا بالمستقبل هما اللذان يعطيانا القدرة على الصمود والبقاء والتحدي. يساعدنا في ذلك التراث الذي يتركه لنا هؤلاء الكبار كغذاء روحي لا ينضب معينه. سيرة عبد الرحمن منيف مع المآسي وسيرته مع المرض وسيرته مع الكتابة واحدة من أجمل وأرقى أجناسها الروائية ستظل حاضرة في وجداننا ننهل منها ومنه ولا نمل.

نبيل سليمان:
جمالية وقيم انسانية

منذ البداية أعلن رجب في رواية "شرق المتوسط" عن المشروع الروائي لعبدالرحمن منيف: أن تكون الكتابة شهادة على القتلة وزمنهم، ولكن بالطريقة الجنونة.

وكان المشهد الروائي العربي آنئذ في إبان فورته، بلونه الكلاسيكي وبلونه الحداثي. ولئن كان اللون الأول في أسّ مشروع عبدالرحمن، فكان رهانه على اللون الثاني.

ومن هنا لم تصب عبدالرحمن منيف لوثة الحداثة التي تشطب على ما تقدم، أو تنفي الألوان الأخرى، أو تصادر المستقبل بوجدانيتها وأوهامها، كما نرى عند بعض الطالعين الموهوبين في كل حين.

ولا ينبغي ان يفوتنا ان عبدالرحمن منيف لم يقع في فخ نرجسية الصوت الحداثي الروائي العربي، وشرنقته التيسرنة، ولم ينحبس في شهرة أو في نجاح، ولم يحبس التجربة الروائي في قفص الشعرية (من الشعر) بما يعني لغة البلاغة القديمة او الجديدة فكانت له لغات الساردين والشخصيات والتناقضات والعلم والعاميات و... والشعر، مما تنطوي عليه روائية الرواية.

أنجز عبدالرحمن منيف مشروعه الروائي الكبير بجمالياته وبقيمه الإنسانية الخالدة.

صلاح فضل:
ايديولوجية تحريرية

ربما كان ابرز إنجازات عبد الرحمن منيف انه انتقل بالرواية العربية الى أفق جديد متحرر أمن سطوة الرواد المصريين، بانفتاحه على الحركة السياسية القومية في توترها العنيفة، وامساكه بالعصب الحساس في الحياة المعاصرة في تقديس الحرية وحقوق الإنسان.

وتمثل كل من "شرق المتوسط"، "والآن هنا" مؤشراً حاسماً لهذه النقلة النوعية في مسار الرواية العربية. ثم جاءت "مدن الملح" ومن بعدها "ارض السواد" لتؤسسا وعياً جديد أبحياة الخليج العربي والعراق وكيفية اختمار مشاريع النهضة و إحباطاتها القاسية في هذه المنطقة البكر.

على أن اعظم ما يميز منيف هو قدرته على صوغ أيديولوجية تحريرية خارجة عن الأطر اليسارية والقومية التقليدية ومتناغمة مع المراحل الجديدة في تطورات الوطن العربي وقدرته الفذة على تحويل الأفكار الى صيغ جمالية بالغة القوة والتأثير.

وأحسب أنه يمثل إحدى الذرى الناضجة في الإبداع العربي المتميز بالصدق التاريخي والالتزام القومي والإتقان الفني في آن واحد، وسيظل إبداعه حياً في الوجدان العربي، وسيرجع إليه دوماً قراء اللغة العربية.

أمينة غصن:
حين يغيب تحضر مدن الملح

أي ملاذ تفد إليه بروح تحكم عليها بالنسيان؟ فهل كنت من صفوة فكرية؟ أم من بنية جماهيرية؟ أكنت سهل الاستمالة أم كنت حالة بدوية تأبى الضيم وسيطرة الغادرين؟ فالوطن منك إذ لم تبطله غربتك، كان له من نزيف القلم وسواده خماسية مدن الملح بما فيها من أعماق تضج بأبار المياه والكوثر، فيضج أصحابها بها تعباً لئلا يحلو الملح فيها، ويؤلخي الماء. عبدالرحمن منيف إذ كتب "التيه" افتتح خماسيته بما كان يمنع التيه: "إنه وادي العيون" الذي حجرته مدن الملح ولم تعد إليه. فحيث يغيب المكان عن العمار الروائي، تنبت جذور القص في السماء، وتنتفي بطولة متعب الهذال الذي كان ينتمي الى وادي العيون بغير سواه، لأن الوادي وحده يشحذ الهمم وينهض بها. فالمكان شرط الوجود، والولادة، والموت. فهو كما قال فيه آلان روب غرييه: موضع خال من الدلالة، لأنه وجود مطلق، ينوب فيه القيم، والوافد، والغريب الذي نزل من الأرض تربة، ليست منها جبلته، فأخطأ الاستيطان، وأخطأه ضوع تراب يستجديه، فينكره. فالمكان في خماسية منيف ليس وطناً سريالياً ولا تكعيبياً ولا دادائياً ولا خيالاً خرافياً، وإنما هو رمش يطمئن العائد اليه في عري الروح منه، وكأنه في طمأنينة ليس مثلها إلا طمأنينة رحمه الأول. فالمكان كالقدر يأتيك في غفلة ومن دون استئذان، فتحضر فيه، ويحضر فيك، تخونه فينتظرك، تنساه فيحن إليك، تبتعد عنه فيناجيك، تخليه فيبقى على أمكنتك ومطارحك وملاعبك وصباك. المكان / الوطن هو الصامت للعون الذي تحمل وشمه، ولهجته، تتحدث به فتزداد في البعد عنه اغتراباً ووحشة. هو فيك كعهد اللحم ينغرز في أوجاعك، وينغرز في زمنك، ويتحول بك الى أسطورة من أساطير عوليس الذي كان يطوف في المجهول فعبدالرحمن منيف في "شرق المتوسط"، وفي "أرض السواد"، شاء ان يكون له ما كان يحسبه فاوست عهد دم يوقعه مع مفيستو. الشيطان الذي اخذ منه الروح ليمنحه المعرفة والخلود. فإذا بـ"شرق المتوسط" وبعدها "أرض السواد" تنتعل عمارات "مدن الملح". وبناها فتعود كما عاد مفيستو بفاوست الى حتمية لا مفر منها هي حتمية جلده الإنساني، ووحشته الإنسانية. عبدالرحمن منيف إذ يغيب تحضر "مدن الملح" لتلفه بكفن يمنع عنه التعفن أو الفساد، وتعود به الى "وادي العيون" بعد كثير من التيه والغربة، ويتم العناق بينه وبين متعب الهذال الذي بقي معلقاً في حدود الغيم والريح ينتظر عودة الغائب، ليكفنه بانتظاره!!

فارقنا وفي نفسه الكثير من بغداد

عبد الرحمن منيف في (أرض السواد)

باسم عبد الحميد حمودي

بين 1997-1999 اكمل عبد الرحمن منيف ثلاثية (ارض السواد) التي نشرت في نفس العام لتشكل وثيقة روائية صور فيها الروائي لتمكن جزء أمن تاريخ العراق زمن حكم آخر المماليك - داود باشا الكرجي، زمن كان فيه البالوز (مقر القنصلية البريطانية ببغداد وتطلق أيضاً على القنصل ذاته) يقيم في الكرخ عند الشط ويقابل فيه سراي الباشا في الرصافة (حيث القشلة)، والسافة (عبر شط) لكنها مسافة بين شمس آذنت بالغروب هي شمس المماليك العثمانيين (رغم انتصار داود الظاهري) وشمس امبراطورية ترى في ممتلكات الامبراطورية العثمانية أجزاء مهلهلة تتفكك وآن لها أن تسيطر على أجزاء منها وقد انتصرت آنذاك في صراعها مع نابليون وحسمت معركتها مع فرنسا التي كادت تطيح بأوربا كاملة زمن ذلك الكورسيكي الحالم بإمجاد شارلمان والإمبراطورية المقدسة. ولم تبدأ فصول الرواية بحركة لكوديوس ريتش المقيم البريطاني الشاب ضد السراي بل بدأت بتصفية حكم الداي سعيد باشا الذي قتله مساعد داود باشا ويده اليمنى الدموية، سيد عليوي. اسقط سيد عليوي رئس سعيد باشا بضربتين من بلطة كان يحملها وتهى حكما كان يقوده ويلعب به حمادي العلوجي صديق الباشا القتيل ومحبه، وما كان لاستانبول إلا أن توافق على تسليم السلطة لداود باشا بعد أن خلصها من ضعف لا تريده لولاتها، وهكذا تم لداود بدء العمل الجاد من أجل تثبيت حكمه على العراق باسره، ولم يتم ذلك إلا عبر أموال مبذولة وسوف تلمع ليرا وخناجر تستخدم عند الحاجة وجيوش تتحرك لمقاتلة الثوار أمثال محمود باشا بابان وقاسم الشادي وصادق أفندي وانتصارات مرة وتراجعات مرة أخرى و.. حتى صفا الجو (أو هكذا يظهر) لداود في وقت تصاعدت فيه محاولات ريتش إثبات قدرته على التغلغل بين البغادة وبين الكرد ومحاولته بناء علاقات مع يهود بغداد عبر التاجر ساسون وروجينا الشرقة على بيت للذة الحرام.

ووجد ريتش الشاب الحالم بمجد جديد يضع فيه بغداد في جيبه هدية للإمبراطورية التي كانت الشمس لا تغرب عنها في شخصية سيد عليوي الدموية المنطلقة إلى سدة الحكم بعد أن نظفت طريقها لداود، وجد فيه ضالة لخلاصة من داود لكن داود باشا يكشف اللعبة ويتخلص من السيد عليوي بسهولة ليسيطر على مقاليد الأمور من جديد.

لم يكن عبد الرحمن منيف يكتب رواية تاريخية خالصة لأنه لو أراد ذلك لنشى بها إلى آخر الحدث التاريخي حيث حصار بغداد على يد علي رضا باشا والكوليرا أو الفيضان ونهاية حكم آخر المماليك لكنه أوقف الحدث التاريخي عند جلاء ريتش عن بغداد مضطراً بعد أن فرض داود حصاراً شاملاً على القيمية وهو يقول:

"عجيب أمر أهل بغداد، يحبون باسراف ويكرهون باسراف.. وربما يخافون أكثر مما ينبغي" ص 52 / ج3، لكن الأمر ليس كذلك فقد رسم منيف لروايته بناءاً حديثاً تاريخياً واضحاً في القراءة الأولى ووضع تحته وفي داخله مجاميع من شخصيات متعددة تعيش وسط المدينة ولها همومها ومصالحها وصراعاتها وارتباطها بحركة الرواية الرئيسية (صراع داود مع ريتش) مثل زينب كوشان شبه المجنونة التي تدعي ملكية محلة شيخ بشار وقد سلبها سيد عليوي أملاكها والشيخ صالح أحد وجهاء قهوة الشط وساسون التاجر الذي يصارع عزرا على النفوذ داخل السوق وصديقته الطربة سلطانه يوسف وصراعها مع روجينا، وناطق مبعوث الوالي وخصامه مع ميناس كبير موظفي القنصلية، وهو صراع يتصاعد مع تصاعد خلافات الرأسين الكبيرين ويخفت بخفوته، وقد قدم منيف داخل أحداث الرواية طائفة من الشخصيات الهامشية التي اشتغلت داخل العمل الدرامي مثل فيروز خادم الوالي ونابي خاتون أم سعيد باشا وخالد أفندي مندوب الاستانة إلى باريس وصديق داود وجوزيف ديراني ومحمود بابان والي السليمانية القوي والعديد من النماذج الإنسانية التي أعطت للعمل الروائي بتفرعات أحداثها الخاصة داخل العمل نوعاً من الاتساع للفضاء الروائي والشد الناهر للأصول الأساسية للحدث في تأجيج الصراع بين الوالي والبالوز في أرض السواد المتعبة منذ زمن لكثرة الحروب والغزوات وسريان الجهل والفساد وضعف الإدارة وتخلفها وسط صراع وجدت فيه نفسها تقف إلى جانب داود خصمه لوشائج معروفة دون أن تكسب هذه الأرض العامرة بالخضرة التي تتكاثف فتغدو سواداً شيئاً سوى النكبات والمجاعات، في ذات الوقت استطاع الروائي أن يضع الخصمين (داود وريتش) في دوامة من الأحلام التي حاصرتهما والمخاوف التي أحاطت بهما وهم يخوضان نزاعاً فرضه القدر وطمع النفوس فكانت خلوات كل منهما إلى نفسه خلوات طلعة خائفة رغم القوة الظاهرية التي يظهران بها أمام الآخرين.

(أرض السواد) أخير أمحاول روائية موفقة في رسم صورة أخرى لبلاد عانى الكثير فنحت خفاياه يد مقتدرة عاشت فيه زمناً طويلاً واستخدمت لغة حوار تتدرج بين الفصحى الملائمة للشخصيات الرسمية الرئيسة والفصحى اليسرة القريبة من العامية البغدادية للشخصيات الشعبية التي تعيش في الشيخ بشار والشواكة والدنكجية.

وبذلك استطاع د. منيف معادلة الحالة الثقافية للفرد داخل الرواية بلغة الحوار التي يمتلكها، وقد فارقنا الدكتور عبد الرحمن منيف أخير أوفي نفسه شيء كثير من بغداد.